أثر الشعر الجاهلي والقرآن الكريم في البناء الفني للصورة اللغوية

إعداد

أ.د. خليل عبد سالم الرفوع

الجامعة القاسمية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

أثر الشعر الجاهلي والقرآن الكريم في البناء الفني للصورة اللغوية

خليل عبد سالم الرفوع

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة القاسمية

الملخص:

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل أثر الشعر الجاهلي والقرآن الكريم في بناء الصورة اللغوية وتأصيلها لتكون مصدرا من بعدُ لفن القول العربي ، فقد كان الشعر الجاهلي المصدر الأول لغويا وفنيا في بناء العقل العربي ، ثم تنزل القرآن الكريم على سَنَنِ العرب في التعبير ليكون متمما جماليا وفنيا بعد نضوج اللغة العربية على ألسنة الشعراء وفي آذان المتلقين الذين فقهوا بنية اللغة وما فيها من إيحاءات معجمية وانزياحات استعارية ، وقف البحث على بعض الصور اللغوية التي وردت في القرآن، مبينا أن تلك الصور بدلالاتها الفنية تتوافق مع ما ورد في الشعر الجاهلي مما يؤكد التكامل اللغوي في بناء أسلوب العربية.

الكلمات المفتاحية : الشعر الجاهلي – القرآن الكريم – البناء الفني –الصورة اللغوية.

The effect of ignorant poetry and the Qur'an on the artistic construction of the linguistic image

Khalil Abd Al , Salem Al , Rifwa

Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Humanities, Qasimiyah University.

Abstract:

This paper studies and analyses the influence of Quran and pre-Islamic poetry in constructing the linguistic image as a source of the artistic Arabic saying. The pre-Islamic poetry was the first artistic and linguistic source in constructing the Arabic mind. Then Quran was revealed down in accordance with the Arabic manner of expression; thus serving as an aesthetic and artistic complement after the the maturity of Arabic at the tongues of the poets and the ears of the audience who comprehended the structure, signifiers and metaphors of the language. This paper has examined some of the Quranic linguistic images, revealing that such images were harmonious with what came in pre-Islamic poetry, thus emphasizing the linguistic integration between both in constructing the Arabic style.

Keywords: Ignorant Poetry - Qur'an - Artistic Construction - Linguistic Image.

جاهلية الشعر معرفيًا وتأسيسًا

يُقصدُ بالشعر الجاهلي : الشعر الذى قيل قبل الإسلام في الجاهلية المتأخرة ، وعمره الزمني – نضوجًا – مائتا سنة إلى خمسين ومائة قبل الإسلام كما يقول الجاحظ : " أما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه : امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة ، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام"[١]، ويعقب شوقي ضيف على رأي الجاحظ السابق قائلا " من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أي عند مائة وخمسين عاما قبل الإسلام ، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى ، وهو يخرج عن هذا العصر الذي ورثنا عنه الشعر الجاهلي والذي تكامل فيه نشوء الخط العربي "[٢]، وأكبر الظن أن الجاحظ لم يرد أن أول قصيدة نظمها شاعر جاهلي تعود إلى مائتي عام قبل الإسلام بل أراد أن بدائع هذا الشعر وروائعه التي توافرت فيها التقاليد الفنية لغوية كانت أو موسيقية أو تصويرية ، هي التي نظفر بها في خلال هذين العقدين وهو نفسه كان يحس ذلك[٣].

---

[١] الحيوان ، عمرو بن بحر أبو عثمان ، ت٢٥٥هـ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ٢ : ٥٣ .

[٢] العصر الجاهلي ، تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف ، القاهرة ،١٩٩٨م ، ط١٩ ، ص٣٩.

[٣] حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، دار الجيل ، بيروت ،١٩٨٧م ، ص٧٠.

وقد نُسِبَ الشعر فيه إلى الجاهلية ، وهي تسمية اصطلاحية قرآنية أطلقت بعد الإسلام دلالة على العصر الذي سبقه فكان جهلا دينيا قائما على العدوان وليس جهلا معرفيا ، ومعروفٌ أن الجهلَ مناقض للإسلام كما أن من معانيه الطيش والعدوان ومن ذلك استمد تسميته ، وفي هذا المعنى يقول عمرو بن كلثوم [١] :

ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والعصر الجاهلي في مجمله عصر لم يتبلورْ فيه دين صحيح يعادل الإسلام فهو حسب وصف القرآن عصر الظلمات "**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**" (سورة البقرة، آية ٢٥٧) فالتسمية دلالة على شيوع العدوان والطيش والنهب بمباركة القبيلة وتحت ظلالِ سيوفها ؛ فإذا لم يجدوا إلا أخاهم فلتكن الحرب عليه إلى أن يترك الليلَ النهارُ ، يقول المهلهل[٢] :

ولستُ بخالعٍ درعي وسيفي إلى أن يخلع الليلَ النهارُ

وإلَّا أنْ تبيدَ سـرةَ بكرٍ فلا يبقى لها أبدًا أثارُ

فهي دلالة مناقضة للإسلام بنوره وعدله ولم تعنِ المعنى اللغوي المعجمي (ضد المعرفة)، فقد كان العرب أهل حضارة فكرية تمثلت في الشعر والكتابة وقراءة التوراة والإنجيل بالعربية والموسيقى والأمثال والحكم والتلاقح

---

[١] شرح المعلقات السبع ، الزوزني ،الحسين بن أحمد بن الحسين ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٣م ، ص ٢١٣ .

[٢] ديوان مهلهل بن ربيعة ، شرح وتقديم ، طلال حرب ، الدار العالمية ، ص٣٤ .

المعرفي مع الأمم المجاورة ، ومادية تمثلت في العمران قصورا ومدنا وحصونا وقلاعا ، وفي النشاطات الاقتصادية كالصناعة والزراعة والتجارة الداخلية والخارجية ، والصيد البري والبحري والرعي وقد تحدث عن ذلك كله مفصلا ومجملا الشعر والقرآن معا حتى وصفهم القرآن بأنهم قوم خَصِمُون ، "**وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** " (سورة الزخرف ، آية ٥٨)، لذا دعا إلى مجادلتهم بالتي هي أحسن إعمالا للعقل من المتجادلينِ جميعا " **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** " (سورة النحل ، آية)١٢٥. فالمجادلة تكون لذوي الألباب مبتدأ ومنتهًى ، فقد كان العرب قبل تنزل القرآن أهل بلاغة في الخطاب وفصاحة في القول ولم يكونوا إلا كذلك لما تنزل عليهم القرآن بما فيه من بيان وجمال غير محددين بمكان وزمان ، ونعلم أن فيهم شعراء بلغوا من الفحولة مستوًى ساميًا أضحى مصدرًا لكل العصور اللاحقة لغةً وإيقاعا وصورا ورؤى.

والسؤال الذي يُلقى في هذا السياق ، ماذا لو لم يتنزل القرآن بلسان عربي ، فهل ستبقى العربية محفوظة إلى يومنا؟ ولو عُكِسَ السؤال السابق ، وقيل : لو لم يك هناك عرب هل تنزل القرآن ؟ ولو عُبِّرَ عن السؤال بمقولة أكثر مباشرة وجرأة ، لو لم يك هناك شعر جاهلي بذلك الرقي اللغوي الفني ، فهل يمكن للقرآن أن يتنزل على العرب ؟ تلكمُ أسئلة متواشجة تفرض إجابة واحدة تتضمن نفيًا فاصلا قاطعا ، فقد اكتمل الشعر قبل تنزل القرآن اكتمالا بيانيا جماليا فنيا معرفيا فكريا لم يستطع الشعر بعده في كل العصور التالية اللحاق به ، فكان كل سبق لأدنى سبقه تَبَعًا ، ولم يك ذلك السبق مقتصرا على الشعراء وحسبُ بل كان المتلقون على درجة سامية من الذائقة اللغوية

المموسقة بإيحاءتها وخيالها وصورها وتاريخيتها ، لذا كان التألق في القول من الشعراء موازيا ومتماهيا مع التلقي الفكري الناقد من العرب عموما ؛ لأنه الفن القولي المسيطر آنذاك ، ولا غرو بعدئذٍ أن رأينا المتلقين أنفسَهم يسارعون في فهم مفردات الإسلام وآيات القرآن فهما دلاليا يعي المعاني المباشرة والرمزية ، فقد مكنتهم الدربة بالشعر على استيعاب دين جديد يقوم على عمود البلاغة قرآنا إلهيا ، ولسانا نبويا أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، فهل كان العرب سيتبعون رسولا أعجمي اللسان يُرْتَجُ عليه في الحديث ولو معه آيات القرآن ومعجزات مادية يرونها بأعينهم ويسمعونها بآذانهم ! لذا كان العقل العربي مبنيا بناء نقديا محكما لمَا تشبع به من فكر لغوي أدبي ديني تأملي تأويلي علمي ممنهج.

كان الشعر يستنفر العرب ويدهش عقولهم وعواطفهم ، وما كان لفن الشعر أن يبلغ مكانته الراقية لولا تضافر بيان القول من الشعراء وقبوله من بيئات اجتماعية رأت فيه جمالا إبداعيا يستأهل الاستماع والحفظ ، فقد بلغ من اهتمام قبيلة تغلب العريقة بالشعر والشعراء أنها كانت تعظم معلقة عمرو بن كلثوم ويرويها صغارها وكبارها ، حتى هجاها شاعر بكري بقوله : [1]

ألهى بني تغلبٍ عن كلِّ مكرمةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

يروونَها أبدًا مذْ كانَ أولُهمْ يا للرجالِ لشعرٍ غيرِ مسئوم

وكانت القبيلة تمنح شعراءها مكانة رفيعة ، فوظيفة الشاعر في القبيلة من أخطر وظائف الزعامة والقيادة ، وهو وضع قد قضت به ظروف المجتمع

---

[1] أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء ، الدار التونسية للنشر ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ١١ : ٤٨ ،٤٩ .

الذي يرى في الشعر محركا دعائيا مؤثرا ؛ لذا كان لكثير من الشعراء القيادة المعنوية الإعلامية والحربية السياسية ، فقد اجتمعت قُضاعة على زهير بن جَناب ، وكان الكلْحة العُرني أحد فرسان بني تميم وسادتها ، وبشامة بن الغدير خال زهير بن أبي سلمى كان سيد بني غطفان ، والحُصين المري كان سيد قومه ، وقد أسندت الأوس أمرها إلى أبي قيس بن الأسلت وجعلته رئيسا عليها ، وكان عبد يغوث بن وقاص الحارثي سيد قومه في يوم كلاب الثاني على بني تميم ، وكان سلامة بن جندل السعدي من فرسان العرب المعدودين وغير هؤلاء كثير[١] ، ومن يستقرئ العصر الجاهلي يجد أن أكثر الشعراء ومن بينهم أصحاب المعلقات قد جمع القيادتين الشعرية والحربية ، وانتشر الشعر في كل البيئات العربية ؛ فقد ذكر ابن قتيبة أن المعروفين بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام " أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ولو أنفد عمره في التنقير عنهم واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال "[٢].

ولعل إحساسهم بسحر الكلمة شعراءَ ومتلقين هو الذي جعلهم يقدمون القصيدة على الخطبة على الرغم من احتواء الضربين على المعاني المعروفة في المجتمع ، قال أبو عمرو بن العلاء : " كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم ويفخَّم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم،

---

[١] انظر : محمد محمد حسين ، الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٠م ، ط٣ ، ص٧٠ ، ٧١ .

[٢] الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨م ، ١ : ٦٠ .

ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ."[١]وقد عدت ولادة الشاعر ولادة للقبيلة، فإذا " نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنَّأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما بالأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ؛ لأنه حماية لأعراضهم وذبٌّ عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم " [٢].

واستمر الاحتفاء بالشعر والشعراء وتعظيم الشعر في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يشغلهم القرآن بجمال بيانه عنه ، فلم يقف القرآن موقفا رافضا الشعر الذي يدافع عن الحق بل عدّه وسيلة للانتصار على الظلم، وأنزل سورة سميت بالشعراء تقريرا لحالة إبداعية واقعية مؤثرة ، وفيها تفسير بياني لمعنى الصورة الشعرية ، وهي أن الشعر قول تخيلي محض لا يصاحبه فعل واقعي "**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (244) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗوَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**(227) (سورة الشعراء) ، وفي سياق حديث القرآن عن مستوى الشعر الجمالي وفتنة العرب به ينفي في ست آيات عن كلام الله صفةَ الشعرية وعن الرسول صلى الله عليه وسلم الشاعرية ، ولم يروَ عن الرسول صلى الله عليه وسلم رفضه الشعر عموما ، فقد قال في عمرو بن الأهتم لما أعجبه شعره :" إن من البيان لسحرا"[٣]، ورُوي عنه قوله : إن من

---

[١] الجاحظ ، البيان والتبيين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١ : ١٦٤ .

[٢] ابن رشـيق القيرواني ، العمدة ، تحقيق محمد قرقزان ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص١٥٣.

[٣] ابن عبد ربه ، شـهاب الدين أحمد بن عبد ربه الأندلسـي ، العقد ، تقديم خليل شـرف الدين ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، ٥ : ١٦٦ .

الشعر لحكمة[١] ، ويروى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم بنى لحسان بن ثابت منبرا في المسجد ينشد عليه الشعر[٢]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه "[٣]، وكتب إلى أبي موسى الأشعري " مُرْ مَنْ قبلك بتعلم الشعر ؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب "[٤]، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله : " الشعر ميزان القول "[٥]، وقالت عائشة رضي الله عنها : " رووا أولادَكم الشعر ، به تغذى ألسنتهم "[٦]، وقال عبدالله بن عباس : " الشعر علم العرب وديوانها فتعلموه "[٧]، ورُوِي عنه قوله : " إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ؛ فإن الشعر ديوان العرب ، وكان إذا سُئِل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا "[٨]، ولأهمية الشعر عند العرب جميعا شبهه أحد الأحبار بالأناجيل ، فقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كعب الأحبار قائلا " يا كعب ، هل تجد للشعر ذكرا في التوراة ؟ فقال كعب : أجد في التوراة قوما من ولد إسماعيل أناجيلهم في صدورهم ينطقون بالحكمة ، ويضربون الأمثال

---

[١] المصدر السابق ، ٥ : ١٦٦ .

[٢] ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، ص٨٦ .

[٣] المصدر السابق ، ٨٦ . ورواية محمد بن سلام الجمحي : أصح منه ، انظر : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤م، ١ :٢٤ .

[٤] ابن رشيق ، العمدة ، ص٨٨ .

[٥] المصدر السابق ، العمدة ، ٨٩ .

[٦] ابن عبد ربه ، ٥ : ٦٦ .

[٧] العقد ، ٥ : ١٧١ .

[٨] العمدة ، ٩٠، ٩١ .

لا نعلمهم إلا العرب"[١]، وعبر الناقد محمد بن سلام الجمحي عن قيمة الشعر في وجدان العرب وتاريخهم بقوله " الشعر ديوان علمهم ، ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون "[٢].

ومن حيث الصيرورة التاريخية الاجتماعية ، والخطابية اللغوية المستعملة واقعيا كان الشعر الجاهلي هو المؤسس الأول للعقل العربي أسلوبا تركيبيا وبناء بيانيا وإيقاعا موسيقيا تنغيميا وكان ذلك الشعر يستهوي العرب؛ لذا سموا القصائد بأسماء تنبئ عن تقديرهم لها ، يقول الجاحظ : "ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا ، وزمنا طويلا، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله ، زماما على رأيه ، ورأيه عيارا على شعره ، إشفاقا على أدبه ، وإحرازا لما خوله الله تعالى من نعمته وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات، والمقلّدات، والمنقّحات ، والمحكّمات ، ليصير قائلها فحلا خنذيذا"[٣] ، ومن ناحية أخرى كان للشعر الفضل في تأسيس الهوية القومية والمحافظة على اللسان من الانحراف عن لغة قريش في صراعها مع بقية اللهجات التي خضعت لصولجان تلك اللغة بقوة ذاتية كامنة فيها ولسلطان قريش في مكة حيث الوثنية والتجارة والأسواق ودار الندوة وميراث نبوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وحرمة البيت الذي استعصى على أبرهة الحبشي المسيحيّ ديانةً البيزنطيّ تبعيةً سياسية ، ومكانة قريش برجالها التاريخيينَ كقُصي بن كلاب وهاشم وعبد المطلب ، وقد حمل ذلك كله ميراثًا كهنوتيا مُؤَسطرا قارًّا

---

[١] العمدة ، ٨٢ . وانظر : العقد ، ٥ : ١٦٦ .

[٢] طبقات فحول الشعراء ، ١ : ٢٤ .

[٣] البيان والتبيين ، ٢ : ٨ . الكريت : التام . الخنذيذ : المُجيد المُمفلق.

في الذاكرة العربية أن لغة قريش لها القِدْحُ المُعَلَّى في المَيْسِر اللغوي ، فكان لها ذلك شعرًا من قبلُ ، وقرآنا من بعدُ ، ولعل ذلك يتوافق مع رأي شوقي ضيف الذي خلص بعد بسط الحديث عن نشأة اللغة وسيادة الفصحى " ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذيوعها وانتشارها بين العرب في الإسلام عن طريق القرآن الكريم كما ظن ذلك بعض الباحثين ، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلي ، بل منذ أوائله ، فأقدم نصوصه كأحدثها نُظم بهذه اللهجة القرشية التي اتخذوها لغةً أدبية عامة لهم ، والتي سُمِّيَتَ بعدُ بالفصحى ؛ فقد كانوا يشعرون بروعتها فاندفعوا يحاكونها ، وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية . ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة في الإسلام ، فقد أقبل العرب في كل مكان شمالا وجَنوبا على الارتشاف من أفاويق لغته ، وقد أخذ يعممها لا في أنحاء الجزيرة القاصية وحدها ، بل في كل بلد إسلامي شرقا وغربا"[1] .

وفي ضوء ما سبق من حديث نخلص إلى أن الشعر الجاهلي كان المبتدأ في بناء العقل العربي ؛ فلم يكن الشاعر الجاهلي بدائيا يفتش عن معان ساذجة يبثها في شعر ساذج بل كان مؤسسًا للغة والفكر والبيان مضمونًا وشكلًا ؛ لذا علينا حينما نقرأ هذا الشعر أن نقرأه قراءة فكرية جمالية تتماهى مع فنيته الراقية تتجاوز معجمية المفردات وشروحات الذين يقفون عند عتبات المعنى الظاهر، فالشعراء أكثر الناس تأملا واستنباطًا للواقع وما وراءه .

[1] العصر الجاهلي ، ص١٣٧ .

القرآن الكريم متممًا بناءَ العقل العربي

لقد ذهبتْ مع جميع الأنبياء معجزاتُهم بموتهم ، فلم يتبقَ منها ومما تُخُدِّيَتْ به أثرٌ أو بقية ، لكن مع النبي العربي صلى الله عليه وسلم بقي الشعر المُتَحَدَّى والقرآنُ المتَحَدِّي شاهدينِ على ما فيهما من إبداع يمورُ بالجمال والتجديد مع اختلاف في زمنية التشَكُّل والهدف والمؤلف ، ولا يمكن المقارنة بينهما في الجودة البيانية ، ولا يمكن لأي مقارنة أن تنهض حقيقةً لسبب رئيسي هو أنه لا يمكن المقاربة بين الخالق والمخلوق ، ومن ثم بين إبداعهما قولا أو فعلا ، وحتى لو أخذناهما نصوصا محضة فلن يصل الشعر بمجموعه إلى مستوى القرآن جودةَ بيانٍ وجماليةَ سياقٍ وانديا ح صور وتكامل أفكار، وقد نفى الله عن القرآن الكريم الشعرية وعن الرسول صلى الله عليه وسلم الشاعرية ، ثم إن القرآن نص واحد متكامل صحيح صادق مُشَرِّع ، والشعر نصوص لشعراء متباينين زمنيا وبيئيا وقَبَلِيًّا وموضوعيا وبنًى شكليةً على الرغم من أن ما جمع بينها من مشاعر وآمال وأوزان وقواف وغنائية كان مؤثرا في توحيد وجدان العرب والارتقاء به إنسانيا حتى قيل إن الشعر الجاهلي ديوان العرب ، لكنه كذلك ليس على مستوًى فني واحد ففيه نضج وتجربة وتأمل ، وفي بعضه ضعف وسوقية ومباشرة ونزعة نحو القبلية بخيرها وشرها والإباحية الجسدية ، لكن الغالبَ كما أسلفنا جمالٌ كالسحر يُضَاءُ بنورٍ يُوْقَدُ من شجرته البيانية.

كان الشعر الجاهلي المؤسسَ الأول تاريخيًّا واستعمالا للعقل العربي ثم جاء القرآن متمِّمًا ، ويلحظ أن مكة الموطن الأول لتنزل القرآن لم تكن موطنا للشعراء ، بل كان الشعر في جنوبها في قبيلة هذيل وفي المثلث الجغرافي الممتد بين نجد ويثرب وحائل ، وفي الساحل المطل على الخليج العربي

امتدادًا من مسقط حتى جنوب العراق حاليا ، وبذلك خرجت من الدائرة البيانية – تأليفًا – مكةُ واليمن وبلاد الشام والعراق نستثني من هذه الشاعر عَدِيّ بن زيد العِبادي الذي كان يعيش في الحيرة ، وما قيل عن تعليق المعلقات على جدران الكعبة هو أسطورة ليست من الحقيقة في شيء ، لكنَّ في مكة سوق الشعر والنقد ، إنها ذاكرة الشعر العربي في العصر الجاهلي ؛ ولأنها كذلك وهي كذلك كان التحدي للعرب أن يأتوا بمثل القرآن أو بعشر سور أو بسورة من مثله ، فقد كان تحديا موجها للعرب مجازيا ، لكنه في الحقيقة للبلغاء منهم وفي طليعتهم الشعراء الذين أُوتُوا من فحولة القول العربي أبلغه وأعذبَه.

لقد أُسِّسَ العقلُ العربي على قواعد لسانية أسلوبية ناضجة من الفكر والفلسفة والتأمل والنقد مُشَرَّبًا بواعثها من الفصاحة والبلاغة خطابا مقروءا ومكتوبا ومتخيلا ؛ لذا لم ينشغل ذلك العقل بعدما سمع القرآن بجمالية البيان بعد الدهشة الثقافية الأولى لسماعه، بل انشغل في التعبد بتلاوته وتطبيق أحكامه بعد فقهِها، حتى من الشعراء الذين أسلموا كحسان بن ثابت ولبيد بن ربيعة والحطيئة وعبدالله بن رواحة وغيرهم ، فحينما حاولوا التأثر به تحول شعرهم إلى تقريرية إنشائية محنطة لَفَظَتها الألسن والآذان والألباب لأنها تعودت من قبلُ على الفحولة الشعرية ، وقد انشغل كثير منهم في نصرة هذا الدين بالهجرة والفتح والضرب في الأرض ولم ينشغلوا بالمقارنة بين محفوظهم الشعري والقرآن ، ولم يتوقف تيار الشعر عن تدفقه بل ازدادت روافده حتى آتى أُكلَه في العصر الأموي وهو أكثر العصور قربا ومضارعة للعصر الجاهلي من حيث التجويد الفني وجزالة اللغة وبناء القصيدة وكانت المَرْبدُ وقصور بني أمية شاهدة عصرئذٍ على ذلك ؛ فكانت أقرب من حيث التشبيه

الواقعي إلى مسارح شعبية ونخبوية يختلف إليها الشعراء والمتلقون يسمعون ويتستمتعون ويتذوقون ويحفظون بدهشة مقرونة بالإعجاب .

كان الشعر الجاهلي المؤسس الحقيقي للعقل العربي ثم جاء القرآن متمما وعبر الصيرورة التاريخية المتعاقبة كان للشعر المتولد عن ذلك العقل دور حركي في إعادة ترميمه كلما ابتعد عن أصله المؤسس كونه المصدرَ والمؤصِّلَ ، وكان يفترض أن يستفيد الشعر في العصور اللاحقةِ منه ومن القرآن ومما تولد منهما وعنهما من تراث أدبي وعلمي ضخم ، لكن النفور من الشعر الجاهلي بزعم صعوبته لغويا أو بانفراد القرآن بالتوجيه العَقَدي الفقهي السلوكي كان سببا موضوعيا في ضعف العقل وتفككه لانشغاله بالحفظ دون الفهم والتذوق من جانب الحَفَظة ، وبالتقعيد الفقهي والنحوي والبلاغي والإعجازي من جانب الأصوليين على حساب التذوق الجمالي المتكامل للنص ضمن سياقاته اللغوية التصويرية .

وقد استمر الشعر بعد العصر الجاهلي في إتمام بناء العقل العربي ابتداء من أصحاب النقائض جرير والفرزدق والأخطل والراعي النميري وأصحاب الشعر الغزلي كعمر بن ربيعة وجميل بثينة وكثير عزة وذي الرمة، ومن تبعهم من الكبار كبشار بن برد وأبي نواس وأبي العتاهية وأبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري وصولا لشعراء الإحياء كأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران والشعراء المعاصرين وفي طليعتهم أبو القاسم الشابي وبدر شاكر السياب ومصطفى وهبي التل والبياتي ومحمود درويش وأمل دنقل وغيرهم ، ولهذا كله كان الشعر عبر عصوره الأدبية المتتابعة مُعزِّزًا في البناء مضمونا وشكلا وروئ مستفيدا مما سبقه من الشعر ومن القرآن وما اُسْتُحْدِثَ من أدب نثري وفلسفي وعلوم إنسانية وتجارب الأمم الأخرى.

مقاربات في تشكيل الصورة اللغوية

أولا : أنسنة المطلق (عسعس تنفس سكت) : لم يكنِ القرآن الكريم حينما تنزل على العرب غريبا عن لغتهم ، بل هو من رحيقها وشذاها فقد تنزل على سنن العرب في التعبير ، وهو إلى ذلك كتاب شمولي فكري إعجازي عَقَدِيٌّ ، بيد أن الجمال البياني الذي يطبع آياته كان مصدرَ جذب وإغراء للعرب لقراءته وتأمله ، فقد عرفوا الشعر هزجه ورجزه وسحره حتى فُتِنُوا به وزعموا أن الجنَّ هم من يوحون لأتباعهم الشعراءِ بالشعر في وادي عبقر، (زُعِمَ أسطوريًّا أنه وادٍ تسكنه الجنُّ لتبرير مصدر الإلهام).

لقد ورد في القرآن انزياحاتٌ تصويريةٌ مثل : أنسنة الشيء أو تشييء الإنسان ، والأنسنةُ تعني إعطاءَ الشيء غير العاقل من حيوان وغيره مشاعرَ الإنسان وصفاته تفكيرًا وإحساسا وحركة وكل ما فيه وبه ، ولعل هذا ما يُسمّى الصورةَ الشعرية في النقد الأدبي ، وكان ذلك موجودًا في شعر ما قبل الإسلام، وقد كان هذا أحدُ جماليات الشعر، فالدار تتكلم قبل وقوف زهير بن أبي سلمى عليها في قوله[1]:

أمنْ أمِّ أوفى دِمنةٌ لم تكلَّمِ بحومانَةِ الدَّراجِ فالمُتَثَلَّمِ

فلِهولِ ما رأت الدمنة (الحجارة شديدة السواد) لم تكلم ، وهي الحافظة لأسرار القبيلة والشاهدة على قتل الإنسان لأخيه الإنسان وأحداث مأساوية وحروب مكروهة ، لم يقل الشاعر لم تتكلم بل قال لم تكلَّمِ للتناسب مع

[1] ديوان زهير بن أبي سلمى ، شرحه وقدم له : علي حسن فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ص١٠٢.

الفاجعة البشرية ، فهي مؤنسنة لها مشاعر الإنسان وأحاسيسه ؛ لذا لم تستطع الكلام ولو كان همسا قليلا ، وكذلك في قول عنترة [١]:

يا دارَ عبلةَ بالجواء تكلَّمي وعِمي صباحا دار عبلةَ واسلمي

والرماح يخْتَطِفْنَ المحامي عند عبد يغوث الحارثي في قوله[٢]:

ولكنني أحمي ذِمارَ أبيكمُ وكان الرماح يختطفْنَ المحاميا

والصور المؤنسنة في الشعر الجاهلية كثيرة مما جعل ذلك الشعر مطبوعا بالأنسنة ، وهي ضرب من النسج اللغوي والتصوير الفني الذي أسس للجمالية البيانية في القول العربي من بعدُ ، وفي القرآن ثمَّةَ أشياء مؤنسنة في الحياتين الدنيا والآخرة ، وما جاء عن الآخرة سيكون حقيقةً بقدر إيماننا باليوم الآخر وما فيه من تغيرات كونية وإنسانية شاملة ، لكنها تثير الخيال بتصوير تأملي مدهش ، وسأضرب أمثلة على الأنسنة بكلمات وردت في سياقات مختلفة ، وهي : عسعس ، تنفس ، سكت ، وهي أفعال ماضية مُحرِكة متحركة بأفعالها المطلقة غير المقيدة ، " **والليلِ إذا عسْعَسَ، والصبحِ إذا تنفسَ**" (سورة التكوير ،الآيتان : ١٧ ، ١٨) ، لقد وردت الآيتان بعد الحديث عن التحولات الكونية يوم البعث ، والعسُّ : هو الشرطي الذي يطوف بين الناس في الليل ؛ فعسّ : فعل إنساني لكنه في الآية ورد مُضَاعَفًا ، عسْ عَسَ ، فتكرار الفعل يدل على تأكيده وقوته وثقله واستمرار حركته ، فالليل يعسعسُ في الكون ، أي يتحرك بثقل وقوة حاملا عتمته وظلامه الشديدين ومرخيا

---

[١] شرح ديوان عنترة ، شرح وتحقيق : محمد سعيد مولوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت، ١٩٨٣ ، ط٢ ، ٦٦.

[٢] المفضل الضبي ، المفضليات ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ،دار المعارف ، مصر ، ط٦ ، ص١٥٧.

سدوله على الزمن كله ، وفي تلك اللحظة تتجلى قدرة الله بجعل الصبح ينبلج متنفسًا بالحياة بعد وطأة الليل وعسعسته وجثومه ، يتنفس الصبح كما يتنفس البشر بعد أن منع عنه الهواء !! فالليل والصبح لا يشبهان الإنسان بل هما مؤنسنان تماما ، ومن مفارقةِ ثنائية التضاد بين الزمنينِ تستمر الحياة وتتكامل دورتها ، كانت تلك أنسنة الزمنين ليشكلا عظمة كونية يقسم اللهُ بهما مؤكِّدًا: إنه لَقَوْلُ رسول كريم ، ومن المؤنسنات المطلقة في القرآن قوله تعالى : "ولما سكتَ عن موسى الغضبُ" (سورة الأعراف ، ١٥٤) ، فالغضب حالة جسدية صوتية حركية بشرية نراها ، لكنه هنا في الآية إنسان يقول ويسكت ، ومن قبلُ وُصِفَ موسى عليه السلام بأنه رجع غضبانَ أسِفا ،

" **قال بئسما خلفتُموني من بعدي أعجلتم أمرَ ربكم وألقى الألواحَ وأخذَ برأسِ أخيه يجرُّهُ إليهِ**" (سورة الأعراف ، ١٥٠)، وقد عرفَ ورأى أنّ قومَه بني إسرائيل اتخذوا العجل إلاهًا بعد أن جاءهم بمعجزات واقعية كثيرة رأوها من قبلُ واقعًا ؛ فقد تمكن منه الغضب فقال ما قال وفعل ما فعل ، وكان حينذاك موجِّهًا له ومسيطرا عليه ، فقد كان الغضبُ هو الفاعلَ المتكلمَ في لحظات الرفض والثورة والساكتَ الهادئَ في لحظات التدبر والتجلي ، أي أن له مشاعر الإنسان وتوتره وهدوءَه ، وتلك صورة تقرب للعقل العربي حالةَ موسى عليه السلام ولن يعادلها أي وصف لحالة الغضب والسكوت معًا حينما تُسْتَبْدَلُ عبادةُ الله بعبادة عجل صنعه السامري من حُلي بني إسرائيل ، وأولُ فعلٍ قام به موسى بعد أن سكت عنه الغضبُ ، أنه أخذ ألواح التوراة بعد أن ألقاها ؛ لأن فيها هدى ورحمة لمن هم لربهم يرهبون.

ثانيا : " **فأجآءها المخاض**" في قصة إنجاب مريم عليها السلام قصَّ القرآن قصتها في آيات بينات في سورة مريم ، وسأقف عند قوله تعالى : " **فأجآءَهَا**

المخاضُ إلى جِذعِ النخلةِ قالتْ يا ليتني مِتُّ قبلَ هذا وكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًا" (سورة مريم ، آية ٢٣) ، لقد تكرر شرح هذه الآية عند المفسرين وشرحوا "فأجآءها" : بألْجَأها وجاءَ بها ، ورأى أكثرهم أن المخاض هو الطَّلْقُ حين الولادة . وفي رأيي حسب الدلالة السياقية أن ذلك ليس صحيحًا ، فالفعلُ جاء لازمًا من حيث البناء النحوي ؛ أي يلزم فاعلا بلا مفعول به ، ويمكن أن يأخذ مفعولا به إذا سبقه همزة أو ضُعِّفَتْ عينه أو زيدت على فائه ألف ، كقولنا من جَلَس : أجلس ، جلَّس ، جالس . وأي زيادة في مبنى اللفظة يعني زيادةً في المعنى ، والاختلاف في الحركات يؤدي إلى اختلاف في المعنى ؛ لذا : جاء بها تحمل معنى الانقياد بإذلال للمجيئ به ، وما أُريدَ لمريم عليها السلام ذلك ، فجاء بها من حيث الدلالة غير أجآء. وأما ألجأ ، فمعناها مختلف ، فهي تفيد سرعة الحركة مع الخوف ، ولم يستخدم القرآن جاء بها وألجأها في التعبير ، بل استخدم أجآءها ، وقد أسند الفعل إلى شيء مطلق مُؤَنْسَنٍ (المخاض) والمخاض في اللغة شدة الحركة أي حركة الجنين في الرحم ، فمن أجآء بمريم عليها السلام إلى جذع النخلة بعد لحظة الحمل مباشرة هو المخاض الذي تحوَّلَ من ألم معروف عند النساء جميعا إلى مخاض مَرْيَمِيّ خاص ، فهو مُؤَنْسَنٌ بمشاعر الإنسان والحنان والعطف ، يحنو عليها وهي تسير معه بهدوء جسدي ؛ فلم يشغلها وجعُ المخاض بل الحزن من تبعات الإنجاب ، ومما أضفى على الفعل جآءها بُطْئًا حركيا مَدُّ الألف مقدار أربع حركات إلى ست[١] ، والمد يتناسب صوتيا مع تثاقل سيرها وبطْء حركتها والحزن النفسي الممتدِ من لحظة تَمَثُّلِ رُوْحِ الله لها بشرًا سويًّا ، وفي ضوء ما سبق أقيد المُبيِّنات الآتية :

[١] حسب قواعد علم التجويد

١- أن صيغة أجآءها استخدمت قبل تنزل القرآن في المعنى نفسه وهو السير الهادئ الذي يصحبه الأمل والرجاء ، يقول زهير بن أبي سُلمى :[١]

وجَارٍ سارَ معتمدًا إليكم أجاءتْه المخافةُ والرجاء

٢ - أن استخدام الفاء (حرف تعقيب يُسَرِّعِ الأحداث) في مفتتح أفعال متوالية ، وهي : فحملته فانتبذتْ به فأجآءها ، تنبئ دلاليًّا أن حمل مريم كان سريعا خاطفا لم تشعر بآلامه وهذا يتفق مع سياق حالة مريم عليها السلام كما يتوافق مع إعجاز الحالة الخاطفة في الحمل لو كان قومها يؤمنون بالمعجزات ، فلم يتعبها الحمل ولا المخاض بل الحزن مما سيكون ؛ لذا أراد الله أن يخفف عنها .

٣ - أن ما كان يؤرق مريم عليها السلام هو معرفتها بقومها ، وأنهم بالتأكيد سيقذفونها بالإفك ، ولعل ذلك ما تحقق بالضبط ، ألم يخشَ زوجُ أختها زكريا عليه السلام من قبلُ من قومه - وهم أنفسهم قوم مريم - حينما نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب وبشّرته بابنه يحيى نبيا ، ألا يضاعف ذلك من حزن مريم أضعافا كثيرة ؟! إن مجتمع مريم وزكريا عليهما السلام لم يكن يؤمن بالنبوة ولا بآياتها ولا بكرامات أولياء الله ، ألم يتحقق ما راود مريم عليها السلام من خشيةٍ ، فقالوا جميعا غير ناظرين لماضيها التَّبَتُّلِيّ " **يا أخت هارونَ ما كان أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانت أمكِ بغيًّا** " (سورة مريم ، آية ٢٨)، ثم يقال إن الطلق هو ما جعلها تتمنى الموت وتكون نَسيا منسيا ، فأي تفسير هذا !! .

[١] ديوان زهير ، ص١٩ .معتمدا : قاصدا . المخافة من غيركم وأمله بكم .

٤ – إن الدليل على أن مريم عليها السلام كانت تعيش حالة من الحزن المتزايد قبل وضع جنينها قوله تعالى " **فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربُّكِ تحتكِ سَرِيًّا**" (سورة مريم ، آية ٢٤)، فلم يقل ألا تتألمي ؛ لأنها لم تكن كذلك بل كان الحزن هو المسيطر، ولم يقل ألا تخافي لأنها لا تخاف بعد أن علمت أنها في رعاية الله ، ولم يقل ولا تخافي ولا تحزني كما قال لأم موسى قبلها، ما كان يحزنها هو الكلمة الجارحة التي ستسمعها على الملأ ، وما سيحزنها أن قومها وهي الخبيرة بهم لن يؤمنوا بابنها نبيا.

٥ – حينما نُوْدِيَتْ مريمُ عليها السلام وطلب منها أن تهزَّ جذعَ النخلة ، لم يكن بفعل ألم المخاض بل كانت آية أخرى لها كي يطمئن قلبها ولا تحزن ، كانت آية محسوسة ، تلمسُ النخلةَ فتتحول حركيًّا بجذعها وثقلها ورطبها إلى خِفَّةٍ مطلقة ، ولم تتحول مريم عليها السلام إلى بطلة في هز الأثقال ورفعها، بل أراد الله أن يُسَرِّيَ عنها لحظة التوتر النفسي والانفعال العاطفي وحساباتها الواقعية المستقبلية.

٦ – إن مريم عليها السلام قد انطلقت مباشرة إلى قومها تحمل رضيعها ، فلم تلبثْ في المكان الشرقي أياما تخطط ، ولم تبحث عن ملجأ أو مغارة أو مُدَّخَلٍ تأوي وابنها إليه، ولم تتسلل لِوَاذًا إلى رؤوس قومها ليحموها، بل أتت به قومها تحمله، وبعدما سمعت من ألسنتهم الحدادِ غمزا ولمزا وقذفًا أشارت إليه، لأنها تبحث بحزنها عن المعجزة التي انتظرتها ، وكانت البِشارة لها سريعا من الرضيع متكلما بلسان مبين : إني عبد الله ، ثم تتوالى المبشرات لمريم .

٧ – لم يتحدث القرآن عن مخاض أمهات الأنبياء لأنه ليس حالة عسيرة خارقة فكل النساء يحملن ويعتريهن المخاض ، لكن مخاض مريم كان مختلفا

فقد تحول إلى صورة إنسان ليخفف عنها حزنها وقد أجآءها إلى جذع النخلة حانيا ومهدئا.

ثالثا : (أضغاث أحلام) لم يكن القولُ العربيُّ شعرًا وقرآنًا ونثرًا إلا تعبيرًا عن العقل العربي في أطوار تشكّلاته ، لذا لا نستغرب تلك القفزة الفكرية الحضارية في التاريخ البشري خلال سنين معدودة من تنزُّل القرآن ، وقد تساوق مع سَنَنِ العرب في التعبير، فتنزلت آياته شاهدةً على رقي العقل العربي آنذاك ، ومما يعزز تلك الرؤية قوله تعالى " **وقال الملكُ إني أرى سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكلُهُنَّ سبعٌ عجافٌ وسبعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ يا أيها الملأُ أفْتُوْنِي في رُؤيايَ إن كنتم للرؤيا تعبُرُوْنَ ، قالوا أضغاثُ أحلامٍ وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمينَ**". (سورة يوسف ، الآيتان ٤٣ ، ٤٤) ، فلقد وردت لفظة الضِّغْث وأضغاثُ في القرآن ثلاث مرات ، إحداها بمعناها اللغوي المعجمي وهو : قبضةٌ حشيشٍ مختلطةُ الرَّطْبِ باليابس والطويل بالقصير وما يؤكل من العشب بما لا يؤكل ، في قوله تعالى مخاطبًا النبيَّ أيوبَ عليه السلام لِيَبَرَّ بيمينه بعد أن حلفَ لئن شفاه الله لَيَجلِدَنَّ زوجَه مائة جلدة ، فخفف الله عنه بأن يأخذ حزمة من الحشيش ملْء الكفَّ عددها مائة ليضربَها بها " **وخذْ بيدِكَ ضِغْثًا فاضْرِبْ بهِ ولا تحنثْ**" . (سورة ص ، الآية ٤٤) ، وأما المعنيانِ الاستعارِيَّانِ فقد ورد أحدهما في سورة يوسف التي ذكرتُها سابقًا ، "قالوا أضغاث أحلام" ، وجاءت اللفظة لتدل على حالة الأحلام المختلطة التي رآها الملك ، سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع عجاف(هزلى) ، وسبع سنبلات خضر يأكلهنَّ سبع سنابل يابسات (ميتة)، والمعروف أن الضعيفَ لا يأكل القويَّ ، وأن الميتَ لا يأكل الحيَّ، ومما أضاف جمالًا على النص قولُ الملك، إني أرى ، وكأن الرؤية لا زالت ماثلة أمامه مستمرة لم تتوقف ، إضافة إلى

تأكيد الفعلين يأكلُ بنون التوكيد الثقيلة ، أي حدوث الفعل مؤكَّدًا مرتين ، ثم إن الحدث الرؤيويَّ مرتبط بالحراثة من خلال (البقر) وبنتاج الأرض (سنابل)، فاستحالة حدوث ما رآه الملك واقعًا يستوجبُ قولَ الملأ : إنه أحلام مختلطة، ملتبسة عليهم ، لا يعلمون تأويلها احتياطًا مستقبليًّا ؛ وكان التأويل متماهيًا مع حالة الرؤية (بقر، سنابل)، معبَّرًا عنها بأضغاث (حشيش)، لذا كان يوسفُ النبيُّ ابن النبيينَ عليهم السلام أعلمَ بتأويلها وله تجربة بالتأويل من قبلُ مع صاحبي السجن كما له تجربة مع الرؤية التي قصَّها صغيرًا على أبيه يعقوب في بداية السورة ، وقد فسر رؤية الملك على سِنِيِّ الجدب والخصب كما ذكرتِ الآياتُ من بعدُ.

وقد اُسْتُخْدِمَتِ اللفظةُ ثانيةً من حيث الدلالة الاستعارية في وصف مشركي قريشٍ للقرآنِ الكريم بأنه أضغاث أحلام حينما عجزوا عن الإقرار بحقيقته الإعجازية الواقعية،" **بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بل افتراهُ بل هوَ شاعرٌ فليأتِنَا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأوَّلُونَ** " (سورة الأنبياء، آية٥)، فلقد اضطرب المشركون في وصف القرآن ؛ فقالوا أضغاث أحلام ،أي : أقوال مختلطة متناقضة ، بيد أنهم استدركوا بعد أن تأملوه قراءةً – وهم أهل البلاغة – فوجدوه ببيانه الراقي ليس كذلك ، فقالوا : بل افتراه (ابتدعه محمد)، لكنهم علموا وهو يعيش بينهم أنه لم يكُ بِدَعًا من البشر افتراءً أو تأليفًا ، ثم أضربوا عمَّا سبق ، فقالوا بل هو شاعر ولم يقولوا إن القرآنَ شعرٌ ؛ لأنهم يعلمون الشعر هزجه ورجزه وقصيدَه ، لذا جاءت آياتٌ أخرُ تنفي عن القرآن صفة الشعرية وعن الرسول صلى الله عليه وسلم صفة الشاعرية ، وحينما عجزوا عن وصفه لأنهم لم يألفوا من قبلُ مثلَ هذا الكلامِ طلبوا أن يأتيَ لهم بآية كونية مادية

غير عقلية بيانية ، وكان ذلك كافيا بإقرارهم أن القرآن ليس بقول شاعر أو كاهن أو ساحر أو مجنون كما زعموا من قبلُ.

ومن حيث التسلسل التاريخي للآيات الثلاث ، كانت أضغاث أحلام على لسان الملأ في سورة يوسف أولا ، ثم في الثانية ضغث التي طُلِبَ من أيوبَ أخذها ليضرب بها زوجه حقيقةً ، ثم قول مشركي مكة أضغاث أحلام في الثالثة ، وهذا الترتيب الزمني له قيمة بيانية في أن القرآن المحفوظ في اللوح لم تستعمل ألفاظه وتعبيراتهُ بشريًّا قبل التنزل ، بينما كانت العربية مستخدمةً وناضجة معجميًّا واستعاريًّا.

لقد وردت ضغثٌ وأضغاثٌ في فن القول العربي – شعرا ومثلًا – قبل تنزل القرآن مُنَجَّمًا على مدى ثلاثة وعشرين عاما ، يقول الشاعر الجاهلي تميم بن أُبيّ بن مُقْبِل يصف امرأة ناعمةً منعمةً كَأَنَّ فِرَاشَهَا غُطِيَ بأضغاث الرَّيحان الذي يتضوع عطره كلما هبت ريح الشَّمال[1]:

خُوْدٌ كَأَنَّ فِرَاشَهَا وُضِعَتْ بِهِ أَضْغَاثُ رِيْحَانٍ غَدَاةَ شَمالِ

وبعدُ ، فالقرآن كلام الله الذي عبر عن أحداث الأمم السابقة وحواراتهم وألفاظهم وأساليبهم الخطابية بلغاتهم الأصلية التي تختلف عن العربية بلسان عربي مبين ، فهو ألفاظ وأصوات وإيقاعات محملة بدلالات ضمن سياقاتها ، لكنها إذا ما نُقِلت أو تُرجِمت إلى لغة أخرى فقدت قدسيتها الإلهة وبيانها الجمالي وإيحاءاتها الدالة، فلا يصح حينئذٍ وصفها بالقرآن لأنها ستكون مُنْجَزًا بشريًّا ناقصًا ، وكلام الله ليس كذلك ، وقد استطاع القرآن الكريم استنهاض اللغة العربية ليس بألفاظه وحسب بل بأسلوبه وبيانه وجرسه وما كان ينقص

[1] ديوانه ، تحقيق د.عزة حسن ، دار الشرق العربي ، بيروت ،١٩٩٥م،ص١٩٠.

العربية قبل الإسلام لتستويَ لغةً عالمية حضارية حيةً إلا القرآن الذي أضحى مُحَفِّزًا فكريًّا كالشعر الجاهلي الذي سبقه لاستنفار العقل العربي بناءً وتشكيلًا وجمالًا.

المصادر والمراجع

١. الأصفهاني ، علي بن الحسين بن محمد الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء ، الدار التونسية للنشر ، بيروت ، ١٩٨٣م .

٢. تميم بن مقبل ، تميم بن أُبَيّ بن مُقْبِل ، ديوانه ، تحقيق د.عزة حسن ، دار الشرق العربي ، بيروت ،١٩٩٥م .

٣. الجاحظ ، عمرو بن بحر بن محبوب

أ. البيان والتبيين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

ب. الحيوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ .

٤. الجمحي ، محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤م.

٥. ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقزان ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م.

٦. الزوزني ،الحسين بن أحمد بن الحسين ، ، شرح المعلقات السبع ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٣م.

٧. زهير بن أبي سلمى ، زهير بن أبي سلمى المُزَني ، الديوان ، شرحه وقدم له : علي حسن فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨م .

٨. شوقي ضيف ، د. شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٥م ، ط٢ .

٩. ابن عبد ربه ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد ، تقديم خليل شرف الدين ، منشورات دار ومكتبة الهلال .

١٠. عطوان ، د. حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٧م.
١١. عنترة ، عنترة بن شداد العبسي ، شرح الديوان ، تحقيق محمد سعيد مولوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، م١٩٨٣ ، ط٢ .
١٢. ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨م .
١٣. محمد حسين ، د.محمد محمد حسين ، الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٠م ، ط٣ .
١٤. المفضل الضبي ،المفضل بن يعلى الضبي ، المفضليات ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مصر .
١٥. المهلهل ، المهلهل بن ربيعة التغلبي ، الديوان ، شرح وتقديم ، طلال حرب ، الدار العالمية ، بيروت .